الفصل السادس

أعداؤنا الثلاثة

" الإفراط في أي شيء يحوله وحشًا كاسرًا ، لا تقدر على إيقافه، وأكثر إفراط منتشر في حياتنا ، الإفراط في العمل ومشاهدة التلفاز وإرضاء الناس ، ولكلٍ دوافعه وأسبابه التي تجعله أمرًا لا مفر منه في حياتنا ، ولنبدأ بالعمل .

العمل .... وما يمثله ... من حلم الرقي والمنصب والجاه ، والأموال التي تحوِّل حياتنا إلى جنة ، فالسعادة لا يناسبها الفقر، بل هو من ألد أعدائها ، وهل قابلت فقيرًا سعيدًا ؟ ، كلا بالطبع .. السعادة هناك حيث القصور والأموال والسيارات الفارهة ، والملابس الفخمة الراقية ، والمأكولات الشهية . أما عن الأبناء فالأموال ضرورية لرعايتهم ، فكيف سيدخل أفضل المدارس ، وكيف سنشتري له ما يريد ، وعندما يريد الزواج ... شقته جاهزة ، عمله في مكان مرموق ، بالمال أيضًا ..... أرأيت فائدة العمل ؟؟ إنه طريق الحصول على المال ، والمال هو ما يجعل أنفاسك معطرة بحب الحياة .

ذلك الكلام السابق ، والذي يترسخ في أذهاننا يومًا بعد يوم ، ما هو إلا ادعاءٌ نسجه خيالنا المريض ، وساعد في تبنِّيه داخل عقولنا بُعدنا عن الله وعن طريق الخير والصواب ، ولكي أثبت لك صدق كلامي ، دعني أسألك بعض الأسئلة :

" هل أنت راضٍ عن نفسك وحياتك؟ هل حقق لك المال السعادة المزعومة؟ هل جعلك المال الذي أغدقته على أولادك راضيًا عنهم ؟ وهل كانوا راضين عنك ؟"

" كلا بالطبع" قلتها والدموع تملأ عيني ، وقشعريرة تسري في جسدي ، كم تمنيت لو أقول لا ، لقد فعل لي المال الكثير والكثير، ذلك المال الذي بذلت عمري في جَمْعِه ، وكنت أظنه سيصبح سبب سعادتي ، لكن يالتعاستي الآن ، أين أنا ؟ ، أين زواجي ؟ ، أين أبنائي؟، فليذهب المال إلى الجحيم . وقلت :

"إنها بالفعل أكذوبة، لقد فعلت لأبنائي كل شيء ، ولم أصل بهم إلى أي شيء ، والمال لم يكن أبدًا سبب سعادة الإنسان"

"قطعًا يا أكرم، المال وسيلة في هذه الحياة وليس غاية في حد

ذاته، علينا أن نعمل لكي نحصل على المال لنعيش حياة سعيدة برضانا لا بمالنا ، وقد رأيت الكثير من الآباء الذين يعملون ويكدحون ويصلون الليل بالنهار عملاً ، ليجمعوا المال ، عادوا وقد ضاعت حياتهم، ومرضت أبدانهم ، وضاع أبناؤهم .

وما أقصده هاهنا أن لا يسرف الإنسان في الاهتمام بعمله حتى يطغى على كل شيء في حياته ، فعملك له وقت محدد ، فإذا انتهى بدأ وقت أهلك ونفسك فلا تجعل للعمل فيه نصيبًا بأي حال من الأحوال .

وأكذوبة أخرى يطلقها الآباء والأمهات أن العمل يأخذ وقتهم هذه الأيام فقط ولابد من التضحية لكي نضمن مستقبلاً مشرقًا لأولادنا ، وبعدها سنتوقف لنستمتع بحياتنا ، ومتى ستتوقفون أيها السادة ؟ بعد أن تضيع صحتكم ؟! بعد أن تصير المسافة بين الزوج وزوجته كما بين النيل والفرات؟! ، وصدقني لن يتوقفوا أبدًا عن اللهث وراء المال، لأنهم قد اعتادوا معيشة مرفهة كفلها لهم المال ، وكذا لأنهم حين يتوقفوا يجدوا أنفسهم وقد نسي كل منهم الآخر ، فيعتريهم الضجر ويعود كل واحد منهم لعمله ، ففي العمل احترام وتقدير أكثر مما في البيت .

" إنَّك تحكي حالي في هذا الشأن ، وأزيدك شيئـًا أنني كلما قابلت مشكلة في بيتي كنت أبالغ في إعطاء عملي أكثر مما يجب ، وكأنه نوع من الهروب ، ولطالما كانت تحدثني نفسي إلى متى سأظل أسيرًا لتلك الأوراق اللعينة ؟"

"ومتى ستتخلص من الأسر في اعتقادك ؟"

"من اليوم ، لقد أصبحت إنسانًا آخر ، وتغيرت نظرتي لنفسي، لقد أصبح عندي أهداف أخرى أحققها غير المال"

"إنني أضرب مثالاً لهؤلاء الآباء والأمهات الذين يعملون، ويجتهدون في جمع المال، ويوهمون أنفسهم بأنهم يبنون مستقبل أبنائهم ، وأنه لابد من فعل ذلك الآن لكي نستريح فيما بعد ، وتنعم الأسرة بالسعادة .

كرجل حوله أبناؤه يبكون من الجوع ، وهو يذهب ليزرع زرعة ستملأ بطونهم بعد أن يحصدها ، ومتى حصادها ؟ بعد ثلاثة أشهر؟، والأولاد يصرخون ، وهو يتركهم ويذهب وزوجته للزراعة ، يوهمون أنفسهم أنه بعد الحصاد سيتحسن كل شيء ، ثم يضطر الأولاد للأكل من عند

غيرهم ، فواحد يطلب أكلاً من الجيران ، والآخر من زملائه في المدرسة، والثالث يسرق أكله ، والأم والأب مشغولان بالزراعة ، وبعد الحصاد يفاجؤون بأن أولادهم قد امتلأت بطونهم من خارج البيت وأنهم ليسوا على استعداد ليأكلوا مما جنى آباؤهم ، وقد انحرفت سلوكياتهم ....

أبناؤك يحتاجون بعضًا من وقتك لا أموالك ، وإن لم تفعل سيأكلون من الخارج ولن تكون لك سيطرة ، بعد أن تكون قد أفنيت عمرك من أجلهم"

وابتسمت وابتسم صديقي لكني قلت له :

" أتعلم لماذا أريد أن أطبق كلامك ؟"

" لماذا ؟"

" إن طريقتك تأسرني ، وأسلوبك يبهرني ، وإني لأحسد أبناءك وزوجتك عليك ، بل وأحسد نفسي أن أرسلك الله إليّ "

شكرني مراد وقد علت وجهه حمرة الخجل وأكمل حديثه العذب قائلاً :

"**والعدو الثاني هو : التكنولوجيا** متمثلة في التلفاز ، الذي

هو عدو تقدم الإنسان – بالطبع عند استخدامه بإفراط دون فائدة – ويزداد ارتباط الناس بالأجهزة ، وتزداد الشكوى من عدم التواصل ، وكم جلست مع أبناء يشكون من عدم جلوس آبائهم وأمهاتهم معهم ، وفي نفس الوقت يقضي الآباء والأمهات الساعات أمام التلفاز"

"لكنَّ الأبناء لا يعطوننا من وقتهم شيئًا بالفعل"

"كلا يا عزيزي الأبناء ينتظرون الآباء لكي يعطوهم وقتهم، وعندها سيختلف الأمر كثيرًا .

مشاهدة التلفاز بكثرة تقضي على الوقت ، وتعوق الفكر وتقتله، وتحرمك من التواصل الفعال مع الزوجة والأولاد ، وكذا تؤثر على عقلك ، كما أنك لن تستطيع الإنجاز أبدًا مع عادة مشاهدة التلفاز"

" لكنه مفيد ومسل ، ويأخذك لعوالم أخرى لم ترها"

" نحن نتحدث عن الإفراط في مشاهدته ، عن الذين يشاهدون أكثر من ساعة يوميًا"

" أكثر من ساعة ؟! وهل هناك من يشاهده أقل من ذلك؟"

"ألم أقل لك ؟ . لقد سيطر على الجميع ، مما يجعل الناس لا يتخيلون حياتهم من دونه، والبعض يجعل التلفاز يعمل حتى وهو خارج البيت، فقط لإحساسه بأهميته في حياته وكأنه هواء أو ماء ، وهو على العكس تمامًا .

التلفاز وحش كاسر ، يقتل الفكر ، ويعطل الموهبة والإنجاز ، ويؤثر تأثيرًا كبيرًا على حالتنا النفسية ، ويضيع الوقت بشكل غير مسبوق، فأنا لم أر في حياتي رجلاً شغوفًا بالقراءة يفرط في مشاهدة التلفاز ، وإنني لأتعجب كيف يعيش الناس مع تلفاز يحتل مساحة كبيرة في حياتهم ، كما أن له تأثير كبير على الأطفال ، سنتكلم عنه في وقته"

" والعدو الثالث ؟"

" الناس"

اتسعت عيناي من الدهشة قائلاً : " الناس ؟!!!"

" نعم الناس .... إن العلاقات الاجتماعية بين الناس لها أثر كبير في حياتهم ، ففي الوقت الذي قد تحتل فيه مكانة كبيرة في حياتنا ، يكون لها أثر عظيم في نجاحنا أو فشلنا في تربية أبنائنا"

" وما علاقة الناس بتربية أبنائي ؟"

" هل صادفك يومًا موقف كان لابد فيه من الاختيار بين إرضاء الناس و إرضاء أبنائك؟ هل كان أبناؤك ينتظرونك لقضاء وقت معهم ، وإذ بأحد أصدقائك أو أقاربك يتصل بك ليخبرك أنه يريدك في أمر ضروري ، فوجدت نفسك تعتذر لأبنائك"

" كثيرًا ما حدث ذلك ، ولم أكن اعتقد أنه يؤثر على علاقتي تأثيرًا بأبنائي ، بل وكنت أظن أن الأمر لا يعدو كونه اعتذارًا بسيطًا، وأن الأمور ستعود لمجراها الطبيعي"

"إن أبناءك في هذا الوضع يقيسون مدى حبك لهم وتقديرك لهم أكثر من الآخرين ، وعندما تعتذر لهم فإنك تبعث لهم برسالة مفادها أنكم لستم مهمين عندي بالقدر الكافي ، بل إن صديقي أو قريبي هذا أهم منكم ، ولابد أن تتجهزوا لأي موقف مشابه ، سيكون التقدير من جانبي للناس وليس لكم"

" يا إلهي ، إلى هذا الحد ؟!"

" أمر آخر ..... هل أساء أحد أبنائك التصرف يومًا ما ،

ووجدت نفسك تقارنه بولد آخر من أبناء أقاربك أو أصدقائك ، وكيف أنَّ الولد الآخر يحسن التصرف وابنك لا يحسن "

بابتسامة عريضة أجبت " لقد فعلتها كثيرًا ، ولكن ما مشكلة ذلك ؟، إنني أظنه تحفيزًا بشكل أو بآخر "

"إنَّ المقارنة بين الأقران من أسوأ العوامل التي يستخدمها أي أب وأم ، وهذا السلوك يدفع طفلك دفعًا لاعتقادين خطيرين :

أولهما : أنك لا تحبه بل تحب هذ الطفل الآخر.

ثانيهما : سوف يكره طفلك الطفل الآخر الذي تقارنه به، وسيتعلم كُره من هو أفضل منه طوال حياته ، أي أن طفلك لن يتقبل فكرة أن هناك تفاوت بين الناس في هذه الحياة .

ونصيحتي لكل أب وأم أن لا يقارنوا أبناءهم بأي أحد آخر ، فكل واحد من الناس في هذه الحياة له شخصية مختلفة عن الآخرين ، لذا يتوجب عليهما أن يتركا المقارنة بينه وبين غيره . وسأحكي لك قصة أثرت فيا كثيرًا في هذا الموضوع " كان أحد أصدقائي كثيرًا ما يقارن ابنه الكبير بابن صديقه عندما كانا صغيرين ، مما أورث حقدًا دفينًا عند

ابنه تجاه هذا الشخص الآخر ، ويومًا ما عندما اجتمعت الأسرتان وكان الولدان يلعبان مع بعضهما ، وأثناء شرب الولد الآخر للعصير فوجئا به يتلوى أمامهم ويصرخ من الألم ، ويقبض على معدته ، فذهبوا به إلى الطبيب الذي أخبرهم أنها حالة تسمم فقد وضع في العصير مادة سامة ، وفوجئ الجميع بذلك واعتقدوا أن الأمر يتعلق بمدة صلاحية زجاجة العصير أو ما شابه ، لكن لما عاد صديقي لبيته وجد ابنه يبكي، فلما سأله : ماذا بك ؟ قال الولد وهو ينتفض من البكاء : سامحوني أنا الذي فعلت ذلك، لقد أخذت بعضًا من مادة كيميائية من معمل المدرسة ووضعتها لصديقي في كوب العصير دون أن تشعروا ، وانهار الوالد أمام ذلك الاعتراف وكأن الأرض قد مادت به ، فسأل ابنه : ولم فعلت ذلك ؟

أجابه الولد بإجابة لم يكن يتوقعها أبدًا حيث قال :

كنت أعلم أنك تحبه أكثر مني، حتى أنك تسارع في الاطمئنان عليه قبل أن تطمئن عليّ أنا .

اتسعت عينا الأب من الذهول وقال لولده : كلا ، بالطبع أنا أحبك أكثر منه ، لماذا تعتقد هذا يا ولدي ؟ .

فرد الولد والدموع تملأ عينيه : لقد كنت تخبرني دائمًا أنه أحسن مني .

يقول صديقي : صُدمت من كلام ابني ولم أكن أتوقع أبدًا أن يصل به الحال لهذا الوضع ، بل ولم أكن أعتقد أن مقارنتي له بغيره تدفعه للانتقام ، لقد كنت أعتقد أنني أحفزه .

" يا إلهي إلى هذا الحد ؟"

" وأكثر ، فالطبيعة البشرية قد تصل بالإنسان إلى حد غير معقول ، ولذا أمرنا ربنا بكظم الغيظ ، وإمساك الغضب"

" إن وضع الإنسان الاجتماعي يحتم عليه أن يهتم بمن حوله ، ويتمنى أن يكون أبناؤه أفضل من غيره ، وإلا فما الدليل على كوني قد نجحت في تربيتهم؟"

" أن يكونوا أشخاصًا صالحين ، يخدمون أمتهم ، يقفون بأقدام صلبة على طريق الحياة الصعب المتعرج .

إن أكبر خطأ يقع فيه الآباء والأمهات أن يخبروا أبناءهم بكلام على غرار .. أريدك أن تكون أحسن الناس ... أو ... أريد أن أراك أحسن

شخص في هذه الحياه ."

حملقت فيه مندهشًا ، وفغرت فمي ، أتراه يدرك ما يقول ، وهل هناك أب لا يقول ذلك لأبنائه أو يتمناه لهم ؟؟!!!

فصحت متعجبًا : " هل لك أن توضح لي كلامك ، فالكلام على هذا النحو مختلف عما يدور بعقلي وبعقل الجميع لو أردت"

" إنَّ ما لا يدركه الآباء والأمهات أن كلامًا على غرار هذا يزرع بين الأبناء وأقرانهم في أي مجال منافسة شديدة ، والحياة ليست مجال تنافس ليظهر كل واحد منا فيه أنه الأفضل، وإن قلت أن هذا هو حالنا فأقول لك لأنه من صنع هذه الأفكار"

" وماذا تريد أنت من أبنائك؟"

" أريد منهم أن يبذلوا أفضل ما لديهم في كل مجالات حياتهم، وأن يتعلموا من أخطائهم، ويسعون دائماً لرضا ربهم، وتحسين مستواهم، والتأثير فيمن حولهم باختصار أن يكونوا من أفاضل الناس، لا أن يكونوا أفضل الناس"

" وهل هناك فرق في الواقع ؟"

"ماذا لو أخبرت موظفيك ذات مرة ..... إن علينا أن نكون أفضل شركة في السوق على الإطلاق ، هل يدعو كلامك لتقبل الآخر ؟ أم إلى إقصائه ؟ وماذا لو قلت لهم إن علينا أن نكون من أفضل الشركات في السوق ، هاهنا كلامك يدعو لتقبل الآخر .

والأمر يختلف مع البشر عن الماديات ، فلابد من أن نتقبل بعضنا، وأن نسهم في ارتقاء مجتمعنا ، وأن تمتد أيادينا بالعون متى احتاج أحد منا ذلك .

"إن كلامك له طابع خاص ، بالفعل نحن لا نقبل بعضنا ، ونقارن دائمًا بيننا وبين غيرنا ، وتمتلئ قلوبنا بالحقد والحسد بسبب المقارنة وطلب التفرد على مستوى كل شخص"

" إذن فعلينا أن نضع الناس في موضعهم الطبيعي في حياتنا لكي لا تفسد حياتنا وحياة أبنائنا .

أمر آخر في غاية الأهمية .. وهو أن تتعلم قول كلمة أطلق أنا عليها صديقة الناجحين"

"وما هي صديقة الناحجين ؟"

" إنها كلمة "لا" "

" لا ؟؟؟!!!" مندهشًا قلتها

" إن الناجحين هم من يستطيعون قول كلمة "لا"، إن الشخص الذي يقول نعم دائمًا شخص على قدر كبير من إهمال النفس والأهل ، فمن أين يأتي بالوقت لكل طلبٍ من صديق ، أو قريب ، أو زميل؟ لابد أنه بقوله نعم دائمًا يطغى على وقته ووقت أهله"

" صديقة الناجحين "لا" ، سأجعلها صديقتي ، سأقول نعم لأهلي فقط"

"قل نعم لأصدقائك في الأمر الهام، أو عندما توفي حقوق نفسك وأهلك فعندها تقول نعم لأصدقائك وزملاء عملك برحابة صدر"

"لكن حقوق النفس والأهل لا تنتهي"

" لا تنتهي لأننا لا نحسن التعامل معها ، أما عندما نحسن التعامل معها ونعتادها ستجدها أمرًا هينًا تستطيع ترتيبه"

" تقصد أن يحصل لي خبرة وحنكة في التعامل مع أولويات حياتي حتى ترتب من تلقاء نفسها ؟"

" بالضبط ، سيحتاج الأمر منك بدايةً كثيرًا من التنازلات ، ثم ستعتاد الأمر وسيعتاد الناس أسلوبك"

" وماذا بعد ؟"

" سأستعمل صديقة الناجحين وأقول لك "لا" ليس هناك بعد، سأنصرف الآن وآتيك غدًا"

ضحك وضحكت وقلت له :

" إن غدًا بعيد جدًا ألا تستطيع أن تجعله قريبًا"

فواصل ضحكه وانصرف .

من قصيدة " كن أبًا ولا تتنح جانبًا"

المرأة تتمنى زوجـًا ... يملك حضنًا ما أدفـاه

يملؤها عطفًا وحنـانًا ... ويراعي فيها مــولاه

يسمعها ويماثل فعلاً ... قد أصَّله رسول الله